

## بول فاليري

يسميه الفرنسيون شاعر العقل ، ونستطيع أن نسميه عقل الشعر ؛ فهذان الوصفان يصورانه أصدق تصوير . وكلا الوصفين يطابق صاحبه مطابقة دقيقة صادقة. والواقع أن حياة بول فاليري قد كانت سابقاً بينه وبين الأدب ، يفر هو من الأدب ما وجد إلى الفرار سبيلاً، ويجد الأدب في طلبه ما وجد إلى الجد في طلبه سبيلاً . وقد يضطر هذان المتسابقان إلى أن يلتقيا ، فإذا كان بينهما اللقاء بدأ بينهما حب عنيف ووصال شديد القسوة قوامه الصراع المتصل ، ثم ينكشف هذا الجهاد عن أثر من الآثار لا يستطيع الانسان أن يقول أى المصطرعين قد غلب صاحبه عليه ، أهو الأدب الذى قهر بول فاليري فأكرهه على أن يخرج للفرنسيين أروع ما عرفوا من الشعر وأروع ما قرءوا من النثر، أم هو بول فاليري الذى قهر الأدب واضطره إلى أن يذعن لسلطان العقل ويخضع لأصوله الدقيقة ومناهجه الصارمة ، ويخرج للفرنسيين حكمة مشرقة وفلسفة مضيئة قوامها الخير فى أبدع صوره ، والحق فى أكرم مظاهره ، والجمال كأروع ما يكون الجمال . وقد يظن القارىء أنى أذهب بهذا الحديث مذهب التمثيل والمجاز المقارب أو المباعد والافتتان فى التعبير، ولكن الواقع من حياة بول فاليري ومن جهده العقلى والأدبى يطابق هذه الصورة التى عرضتها عليك أدق المطابقة وأصدقها . فقد ولد بول فاليري سنة ١٦٧١ فى مدينة ست ونشأ فيها وبدأ فيها درسه ، حتى إذا بلغ الرابعة عشرة انتقل إلى مونبلييه لىتم فيها درسه الثانوى . وكان أثناء هذا الدرس مزدرياً لنظام الدراسة، معرضاً عن درس المعلمين، ناقداً لأساتذته، ساخراً مما يقولون ، مؤثراً الاعتماد على نفسه فى تحصيل ما يحتاج إليه أو ما يعيل إليه من العلم . وكان طموحاً إلى العمل فى الأسطول ضابطاً بحرياً ، ولكنه لم يظفر من العلوم الرياضية بما كان فى حاجة إليه ليدخل المدرسة البحرية . ولذلك أعرض عن البحر وعن الأسطول وعن الرياضة واكتفى بدراسة الحقوق . ثم كانت الخدمة العسكرية حين أتم التاسعة عشرة من عمره فى مدينة مونبلييه أيضاً . وفى

هذا الوقت عرف شاين فرنسيين كان لهما حظ من البحر عظيم: أحدهما بيير لويس، والآخر أندريه جيد. ولما فرغ من الخدمة العسكرية، وكان قد قرض شيئاً من الشعر، لم تعجبه الحياة الأدبية، فقرر الانصراف عنها والفرار للحياة العقلية الخالصة، واتفق في هذه الحياة العقلية الخالصة أعواماً. وأكبر الظن أنه أخذ يقرأ آثار الفلاسفة القدماء والمحدثين، ويفكر فيما يقرأ ناقداً محلاً مستنبطاً. وأكبر الظن أن السباق بينه وبين الأدب قد بدأ في ذلك الوقت؛ فهو كان قرض شيئاً من الشعر ونشره في بعض المجلات وظهر بشيء من الإعجاب، ولكنه أضر عن الشعر وفرغ للفلسفة، وإذا حياته العقلية التي فر إليها من الأدب تثير في نفسه خواطر لا يجمد بدأً من تسجيلها، ولو استطاع لما سجلها ولا حفل بها. ولكن هذه الخواطر تلح عليه وتلح، وتضطره إلى أن يقف عندها ويطيل الوقوف، ثم إلى أن يسجلها فيحسن التسجيل، وهو يكتب آيته الرائعة «مسيوتست». ومسيوتست هذا ليس إلا بول فاليري في هذا الطور من حياته، حين شغف بالعقل وآثر أن ينحاز إليه ويقف نفسه على التفكير فيه، وحين بهر ما رأى من حياة العقل فيما بينه وبين نفسه أولاً وفيما بينه وبين الحقائق الخارجية ثانياً. وقد اضطره هذا المشهد الرائع الذي استكشفه حين عكف على نفسه إلى حياة داخلية قوية أشد القوة، إن صح هذا التعبير؛ فهو قد استكشف في ضميره عالماً أشد جمالا وأعظم روعة وأكثر دقة وتنوعاً من العالم الخارجي الذي يعيش فيه، فنجح عنايته كلها أو أكثرها لهذا العالم الداخلي، وعاش مع نفسه أكثر وقته، ولم يصح العالم الخارجي بالقياس إليه إلا وسيلة للعالم الداخلي يمنحها من العناية أيسرها وأهونها شأناً. فهو يحيا بين الناس وكأنه لا يراهم، ويتحدث إليهم وكأنه لا يسمهم لأنه مشغول بهذا العالم الرائع البديع الذي يملأ نفسه من جميع أقطارها. حياته في العالم الخارجي آلية غافلة ذاهلة، ولكنه يمنح هذا العالم الخارجي في بعض الأوقات النادرة لفتة من لفتاته، وإذا هو يلتمه التهاماً وينقض عليه كما ينقض الوحش على فريسته، ثم لا يلبث أن ينصرف عنه إلى عالمه الخاص وكأنه لم يره ولم يلم به.

والمهم هو أن بول فاليري الذي فر من الأدب إلى الفلسفة لم يستطع أن يفلت من الأدب، وإنما أدركه الأدب، وكان بينهما هذا الجهاد الذي ينتهي بإنشاء هذا الكتاب الذي سيظل شاباً دائماً وخصباً دائماً وحافلاً بما يملأ النفس

إيجاباً وبما يدفع العقل إلى التفكير المتصل الذي لا يضيع في غير نفع ولا يذهب في غير غناء .

وفي هذا الكتاب الصغير القصير الحجم الكبير الطويل قيمة ما فيه من فن وفلسفة ، ظهرت هذه الشخصية القوية التي عرفها المثقفون والمتأدبون لبول فاليري أثناء حياته كلها . فإذا كان شخص بول فاليري يمتاز بشيء في حياته، وفيما أنتج من شعر ونثر، فإنما يمتاز بهذا الصراع المتصل العنيف المتغلغل في كل شيء المتناول لكل شيء بين عقله العظيم الرزين ذى المزاج المعتدل والبصيرة النافذة والقدرة على التجريد والنظر إلى الأشياء من عل ، وبين حسه الدقيق المرهف وشعوره الرقيق الحاد وذوقه المصنّى المهندب . ثم يمتاز بأن هذا الصراع ينتهي دائماً إلى نوع من السلام الممتاز الرائع بين العقل والحس والشعور والذوق . فأنت حين تشهد نتائج هذا الصراع إنما تشهد انسجاماً غريباً بديعاً بين هذه العناصر كلها، قد أخذ من كل واحد منها بمقداره، ولاءم بين هذه المقادير ملاءمة دقيقة إلى أبعد حدود الدقة، بحيث لا تستطيع أن تجد فيها عوجاً ولا أمتاً ولا انحرافاً . ومصدر هذا كله أن هذه الملكات التي يأتلف منها شخص بول فاليري قد كانت قوية إلى أبعد غايات القوة ، معتدلة مع ذلك إلى أقصى حدود الاعتدال . وكانت إرادة بول فاليري متسلطة على هذه الملكات تسلطاً قوامه الحزم والعدل ؛ فهي تلتأم بينها في صرامة وتقييم الأمر بينها بالقسطاس وتمنع بعضها أن يبغى على بعض . وما أعرف أنى قرأت لكاتب أو شاعر في لغة من اللغات التي استطعت أن أقرأ فيها ، فوجدت هذا الاعتدال والاستواء والتناسق كما أجدها فيما أقرأ لهذا الكاتب الشاعر العظيم ، لا أستثنى من ذلك إلا حوار سقراط . وما أظن أن شيئاً قد أثر في التكوين العقلي لفاليري كما أثر فيه حوار سقراط .

وفي أواخر القرن الماضي في سنة ١٨٩٨ كان بول فاليري الذي قارب الثلاثين يعيش في باريس، وقد اشتغل موظفاً في وزارة الحرب معرضاً عن الأدب والأدب يطلبه، متصلاً مع ذلك بالشاعر الفرنسي العظيم «ستيفان مالرميه» محباً له مقتوناً بفنه الغامض الذي يروع باستوائه والتوائه ، إن أمكن أن يجتمع الاستواء والاتواء ، والذي يفتن بدقته وارتفاعه إلا عن العقول والملكات التي امتازت حتى كادت تصبح هي والامتياز شيئاً واحداً . وفي سنة ١٩٠٠ فقد بول فاليري أستاذه

مالرميه وترك وزارة الحرب والتحق بشركة هافاس البرقية واتخذ له زوجاً، وأمعن في الانصراف عن الأدب، وحيثل إلى نفسه وإلى الناس أن قد قطعت الصلة بينه وبين خصمه هذا العنيد إلى آخر الدهر . ويقول الذين يعرفونه والذين تتبعوا حياته في الأعوام الأولى من هذا القرن إنه مضى في حياته العقلية الفلسفية، وإنه تعمق الرياضة التي استعصت عليه في أيام الشباب الأولى ، ولكنه قد نشر في بعض المجلات وأرسل إلى بعض الأصدقاء مقطوعات من الشعر أحبوها ورضوا عنها . وقد أقبل أندريه جيد ذات يوم على صديقه بول فاليري سنة ١٩١١ حين بلغ الأربعين من عمره يطلب إليه الإذن في أن يجمع ما تفرق من شعره لينشره في المجموعة التي كانت تنشرها المجلة الفرنسية الجديدة . وقد امتنع بول فاليري على صديقه امتناعاً شديداً ، ولكن أندريه جيد ألح إلحاحاً شديداً أيضاً، وانتهى الأمر إلى أن قبل فاليري إعادة النظر في شعره ذلك .

وقد استأنف النظر في هذا الشعر، فلم ينفق في ذلك أياماً ولا أسابيع ولا أشهراً، وإنما أنفق فيه خمسة أعوام أو أكثر من ذلك قليلاً . ففي سنة ١٩١٧ فوجيء الناس بظهور الديوان الأول لهذا الشاعر الممتنع على الشعر ولهذا الأديب المتأني على الأدب . وكان بول فاليري قد قارب الخمسين من عمره . وليس من شك في أن ديوانه الأول ثم ما تبعه من الشعر والنثر بعد ذلك قد نجأ المتأدبين فجأة قوية رائعة ، وإذا بول فاليري يحتل مكانه بين الأدباء والشعراء والممتازين ، كأنما كان هذا المكان الممتاز قد هيء له من قبل فهو ينتظره منذ وقت طويل . ومنذ ذلك الوقت شغلت البيئات والمجلات الأدبية والصحف السيارة بأدب بول فاليري أكثر مما شغلت بأي إنتاج أدبي آخر . ثم أخذ نجمه يتألق في الأفق حتى ملاه نوراً ، وإذا هو يتجاوز حدود فرنسا إلى أقطار الأرض كلها، وإذا هو أديب عالمي في أقل من عشر سنين منذ نشر ديوانه الأول ، وإذا هو عضو في المجمع اللغوي الفرنسي في سنة ١٩٢٧ يشغل كرسى أناتول فرانس ويلقى خطبته الرائعة التي لم يفرغ الناس من الحديث عنها بعد والتي لم يدافع أحد عن أناتول فرانس كما دافع عنه فيها . وقد أنشأت عصبة الأمم مجلس التعاون الفكري ، وأنشأ هذا المجلس لجنة الفنون والآداب ، وأصبح بول فاليري رئيساً لهذه اللجنة بل أصبح عقلها المفكر وقلبها النابض . ثم أنشئ معهد البحر الأبيض المتوسط في نيس وأصبح بول فاليري رئيساً له ، ثم أنشئ في الكوليج دي فرانس كرسى للشعر وأصبح

بول فاليري صاحب هذا الكرسي، وهو قد عين أستاذاً بعد أن نيف على الستين. وكذلك أصبح بول فاليري حامل لواء الأدب والشعر في فرنسا وعلماً من أعلام الثقافة العليا في أقطار الأرض كلها، واتصل بكل شيء وشارك في كل شيء، حتى كان يقول إنه أصبح رئيساً لهيئات ومؤسسات لا يكاد يحصيها، وإنه كثيراً ما يدعو نفسه بكتاب منه إليه ليشهد هذا الاجتماع أو ذلك لهذه الهيئة أو تلك.

فإذا امتازت الحياة الأدبية لبول فاليري بشيء في ظاهر الأمر فتما تمتاز بامتناع صاحبها على الأدب أشد الامتناع وإيثاره للعزلة حتى جاوز الأربعين، ثم استجابته بعد ذلك للأدب كارهاً، واندفاعه في هذه الاستجابة حتى عوض ما فات واسترد ما كان خليقاً أن يكسبه من المجد والشهرة في عزلة الطويلة، وكسب في وقت قليل ما ينفق فيه غيره الأعوام الطوال والأعوام الطوال ليكسب بعضه. فقد ظهر بول فاليري فجأة في السابعة أو الثامنة والأربعين من عمره، ولم يبلغ الستين حتى كان قد ملأ الدنيا وشغل الناس، كما كان يقال في المتنبي منذ ألف عام. فلما توفى وقد نيف على السبعين كانت الفاجعة بعوته خطباً شاملاً للعالم المثقف كله لا محنة مقصورة على فرنسا ووطنه.

وما زالت هناك مسألة غامضة سيكشفها التاريخ الأدبي في وقت قريب أو بعيد، وهي مسألة عظيمة الخطر. فهل كان بول فاليري أثناء عزلة الطويلة يتهيأ عن عمد لهذا المجد الأدبي الذي فاجأ به الناس، أم هل كان صادقاً كل الصدق مخلصاً كل الإخلاص في إعراضه عن الأدب وامتناعه عليه حتى فاجأه المجد كما فاجأ الناس؟ ومهما يكن من شيء فإن الحقيقة الواقعة التي نستطيع أن نسجلها مطمئنين هي أن بول فاليري قد آثر الأناة والاحتياط والحذر، وأبفض الشهرة والمجد والمتهالكين عليها، وقدر الفن على أنه غاية لا وسيلة، بل على أنه الغاية العليا التي يطمح إليها الإنسان حين يبلغ أقصى ما يستطيع أن يبلغ من الامتياز من الثقافة والمعرفة. فهو لم يبغي شيئاً كما أبفض السهولة، ولم يزد شيئاً كما ازدري الإسراع إلى الإنتاج والأسراع في الانتاج والاستجابة لهذه الدواعي الكثيرة التي تدعو إلى الانتاج وتدفع إليه دفعاً في كثير من الأحيان. وليس بالشيء القليل أن يمتنع الفرد على عصره، ويلتزم عزلة، ويزدري هذه المفريات الهائلة التي كان الناس يستحيون لها من حوله، بل يسعون إليها سعيًا ويلحون في التماسها

إلحاحاً، ويبتغون إليها من الوسائل ما يعقل وما لا يعقل. وهنا تظهر الخصلة التي يمتاز بها بول فاليري في حياته الخلقية، وهي خصلة الكرامة التي تمنح صاحبها مزاجاً من التواضع والكبرياء، وتمنحه التواضع بالقياس إلى المثل العليا وما يحتاج إليه من تكلف الجهد العنيف واحتمال الغناء الشاق والإلحاح في السعي المتصل وتمنحه الكبرياء التي ترفعه عن الصغار وتنزهه عن الدنيات وترغبه عن الأشياء التي يقرب تناوؤها، وتنحرف به عن الغايات التي يسهل الوصول إليها. ثم تؤلف له من هاتين الخصلتين هذا المزاج المعتدل الرفيع الذي يجعله من هذه الأرسقراطية العقلية، وإذا هو يسعى إلى مثله العليا على بعدها ملحاً في السعي غير راض بما يبلغ منها مهما يكن ما يبلغه، متخذاً في سعيه إليها أبعد الطرق وأشدّها عسراً وأكثرها عقاباً، واجداً لذته في إساعة هذا العسر وقهر هذه العقاب والتغلب على هذه المصاعب، مبتكراً هذه العقاب والمصاعب إن أحس أن الطريق قد سهلت له واستقامت أمامه وأصبحت خليقة أن تبلغ به غايته في جهد معتدل وسعي يسير.

وهذه الخصلة لم تؤثر في حياته الأدبية وحدها، وإنما أثرت في حياته المادية أيضاً؛ فهو لم يلتمس قط ثروة ولم يسع قط ليبلغ هذا المآرب أو ذلك من مآرب الحياة. ولما أدركته الشهرة لم يستغلها ولم يستثمرها ولم يتخذ أدبه وسيلة إلى فتنة القراء ورضا الجمهور وتحقيق الثراء العريض، وإنما ظل مزدرباً للشهرة معرضاً عن المجد، يشتهر عن رغبته ويرقى على كره منه ولا يبلغ من ذلك ثراء ولا رخاء. وقد كان عضواً في الجمع اللغوي منذ عشر سنين حين أنشئ له كرسيه في الكوليج دي فرانس، فهو لم يسع إلى الكوليج دي فرانس وإنما هي التي سعت إليه، ولم يطلب الجمع اللغوي وإنما هو الذي طلبه ولقد شهدته في بعض الجامعات الأدبية وقد نهض بعض الحاضرين يذكر الأدباء الذين بلغوا من المجد ما بلغوا ويسرت لهم الحياة فاطمأنوا إلى شيء من الدعة، ولأموأ بين ذلك وبين حرصهم على إرضاء الفن والنهوض بحقه. وكان بول فاليري أحسن في حديث هذا المتحدث تلميحاً إليه أو تعريضاً به، فقال هذه الجملة التي لن أنساها، في ذلك الصوت الذي لن أنساه: «نعم بعد أن كادوا يموتون جوعاً».

وقد عرفت بول فاليري من بعيد حين جأ الناس بأدبه الرفيع في أعقاب الحرب الماضية، فأعجبت به كما كان يعجب به الناس إعجاباً يقوم على التقليد أكثر

مما يقوم على الدراية الصحيحة . ثم أقبلت على آثاره أقرؤها المرة والمرة والمرات ، وإذا أنا أحبه عن فهم له . ولكن أى فهم افهم ليس بالتقريب ولا بالمقارب ولا باليسير ، وإنما هو نتيجة الجهد المكرر والقراءة المرددة والتفكير المتصل ، ثم هو بعد ذلك ليس راضياً عن نفسه ولا مطمئناً إلى ما وصل إليه . والذين يقرءون آثار بول فاليري سواء أكانت شعراً أم نثراً يتفقون على أن اللذة التي يحصلونها من هذه القراءة لا تأتي من فهمه واستيعابه ، وإنما تأتي من محاولة فهمه سواء أنجحت المحاولة أم أخفقت ، ثم تأتي مع ذلك من هذه اللغة الصافية العذبة السائغة التي تجمع بين الرقة والرصانة وبين النعومة والجزالة ، والتي تخيل إليك أنها واضحة بكل الوضوح ، وهي كذلك واضحة كل الوضوح ولكنها على ذلك مليئة بالأسرار . لا تقرؤها مرة إلا حصلت من قراءتها علماً ولذة لعقلك وذوقك وشعورك جميعاً . وقد أتيحت لبول فاليري أشياء لم تتح لكثير غيره من الكتاب والشعراء . فقد كان كشاعرنا القديم المتنبي يستطيع أن ينشد :

أنا مملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراًها ويختصم

وقد تحدثت في غير هذا الموضوع عن اختلاف العلماء والأدباء من الفرنسيين في فهم شعره وتأويله وتفسيره وعن قصيدة المقبرة البحرية التي خصص أستاذ من أساتذة السوربون بعض دروسه لتفسيرها للطلاب ، وقد شهد بول فاليري بعض هذه الدروس ، وجمع الأستاذ بعد ذلك دروسه في كتاب قدمه له بول فاليري بمقدمة فيها ظرف وثناء كثير . ولكن الذين يقرءون هذه المقدمة يخرجون من قراءتها غير واثقين بأن الشاعر قد رضى عن شارحه الأستاذ كل الرضا .

وليس نثر بول فاليري أقل حاجة إلى التدبر والروية ومراجعة القراءة من شعره ، وليس هو أقل إمتاعاً للنفس وإرضاء للعقل والقلب من شعره أيضاً . ومع ذلك فقد كان بول فاليري نفسه يرى أن النثر أقصر حياة من الشعر ؛ لأن النثر أيسر على الأفهام من الشعر ، وإذا فهمت نصاً فقد قتلته . ولست أدري أصحيح هذا أم غير صحيح ، ولكنى واثق بأن الجيل المعاصر لبول فاليري لم يقبل نثره كما أنه لم يقبل شعره . ولكنى أشارك النقاد المعاصرين من أهل فرنسا في أن الأجيال المقبلة لن تستطيع أن تتقبل شعره أو نثره ، ولكنى مطمئن كما اطمان

النقاد المعاصرون في فرنسا إلى أن بول فاليري لم يميت وإنما ذهب شخصه المادى ، فأما شخصه المعنوى فخالد فيما ترك من شعر وثر .

وقد تحدث بول فاليري نفسه عن «ديكارت» فأبنا الذين كانوا يسمعون له في السوربون ان عطاء الرجال من أهل الثقافة خاصة إنما تنمو شخصياتهم وتقوى بعد أن يموتوا وبعد أن يمضى على موتهم وقت طويل أو قصير . وكأنما كان يتحدث عن نفسه ؛ فشعره وثره وأدبه كله سيقدم إلى الأجيال هذا الغذاء الرفيع ؛ وسيجيا في هذه الأجيال حياة متصلة ، وستكون هذه الحياة مؤتلفة ومختلفة معاً . مؤتلفة في هذه الكتب والدواوين التي تركها للإنسانية تراثاً ، ومختلفة في نفوس الذين سيقرونها ويسبقونها ويتمثلونها ويكونون لأنفسهم صورة ما لصاحبها تلاءم ما يستطيعون من التصور والتصوير جميعاً .

ولم يكن بول فاليري كغيره من الأدباء ينظم الشعر ويكتب النثر في هذه الموضوعات التي يتكلفها الكتاب والشعراء قصصاً وتمثيلاً ودراسات ، ولكنه كان صاحب تعمق لأشياء مختلفة ، لا تكاد تتفق إلا في أنها كلها تتصل بالفن المترف الجليل من جهة ، وبالعقل الناقد المستقيم من جهة أخرى .

فهو يكتب في العمارة ، ويكتب في الرقص ، ويكتب في النفس ، ويكتب في العقل ، ويكتب في التصوير والنحت والرسم والموسيقى والغناء . ثم هو يكتب في نقد الأدباء والفلاسفة والمثاليين والمصورين . وما أعرف أن أحداً قرّب إلى القراء ديكارت اوليونارد دى قيسى أوستندال أومونتسكيو أولافونتين كما يقربهم بول فاليري . وما أعرف أن أحداً حلل الفنون الرفيعة كما يحللها بول فاليري . وما أعرف أن أديباً أو فيلسوفاً حلل عمل العقل الانساني وهو يفكر ويلاحظ ويتأمل ويستمتع ويمكف على نفسه كما حلله بول فاليري .

وقد قلت في أول هذا الحديث أن بول فاليري قد تأثر أشد التأثر بحوار سقراط كما نقله أفلاطون . وما أشك في أن بول فاليري كان من أشد الناس إتقاناً للفتين القديمتين ، وعالماً بأسرارهما وتذوقاً لخصائصهما . وقد كان يقول في شيء من السخرية إن الذين يزعمون أنهم يحسنون اللاتينية أو اليونانية في هذه الأيام يخدعون أنفسهم ؛ لأنهم لا يستطيعون أن يستعينوا على قطع الوقت في القطار بقراءة توسيديد أو تاسيت . ولن يحسن الانسان لغة إلا إذا قرأها في غير مشقة وفهمها في غير جهد ، وذاقها في غير عناء . ولكن بول فاليري لم

يتأثر بقديم اليونان والرومان كما يتأثر به غيره من المثقفين الممتازين فحسب ، وإنما تمثل الأدب اليوناني الرفيع والفلسفة اليونانية العليا تمثلاً غريباً رائعاً حقاً حتى استطاع أن يحدث ألواناً من الحوار يُنطق فيها سقراط وبعض تلاميذه بملاحظات في الفن وفي الجمال، منها ما يتصل بالمهارة، ومنها ما يتصل بالنفس، ومنها ما يتصل بالرقص ، ما كانت لتخطر لسقراط وأصحابه على بال . وأحسب أنها لو نقلت إلى اليونانية الأتيكية التي كان يصطنعها سقراط وتلاميذه ، لما كانت أقل روعة وجمالاً من يونانية أفلاطون ، ولما كانت أقل روعة وجمالاً في تلك اليونانية منها في هذه اللغة الفرنسية الرصينة المتينة الرقيقة العذبة التي اصطنعها بول فاليري في القرن العشرين . سم هي تزيد على ذلك أن فيها معاني وخواطر وآراء لم يكن سقراط وتلاميذه ليسيفوها لأن بينهم وبينها خمسة وعشرون قرناً تطور فيها العقل الانساني وزاد محصوله من العلم والمعرفة ، وأتاح ذلك كله لبول فاليري ما لم تتحه الحضارة اليونانية لسقراط وأفلاطون .

ومهما تقرأ من شعر بول فاليري وثره ، ومهما يكن الموضوع الذي يمارسه الأديب شعراً أو ثراً ، فسترى دائماً أدب اليونان الرفيع ونقائهم العليا شائعين فيما تقرأ يغذوانه بخير ما فيهما ؛ لأن بول فاليري قد خالط اليونان القدماء مخالطة نادرة شديدة التنوع : خالطهم في أدبهم وفي فلسفتهم وفي فهمهم وفي سياستهم ، وخالطهم في دينهم بتوع خاص ، ثم خالطهم بعد ذلك في حياتهم العاملة التي كانوا يحيونها في ساعات النهار والليل .

ثم هو قد أضاف إلى هذه الثقافة القديمة خير ما أنتجت ثقافة العصر الحديث ، فتمثل عصر النهضة في إيطاليا وفرنسا على اختلاف مظاهر النهضة فيه ، ثم تمثل القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر في أوروبا كلها ، لم يترك ظاهرة من ظواهر الحياة العقلية إلا أتقنها علماً وفهماً وتأويلاً وتحليلاً . وعنى بالعلم عناية خاصة ، فتعمق العلوم التجريبية ، وتعمق الرياضة حتى استطاع أن يتحدث عن هذه العلوم كأحسن ما يتحدث عنها أصحابها ، وأن يجادل الأطباء والعلماء ويصحح لهم آراءهم حين كانوا يشاركون في وضع المصطلحات العلمية للمعجم الفرنسي الذي يصدره المجمع اللغوي .

ثم هو قد تعمق مذاهب الفلسفة منذ فلسف اليونان قبل سقراط إلى أن فرغ برجسون من إقامة مذهبه الفلسفي الأخير . وهو من أجل ذلك يحاور في الفلسفة

كأحسن ما يحاور فيها الفلاسفة. ولعله يتمثلها خيراً مما تمثلها الفلاسفة؛ لأنه جمع إلى عقله الناقد الممتاز قلباً ذكياً وإحساساً مرهفاً وشعوراً رقيقاً حاداً وذوقاً دقيقاً لا يفوته شيء.

وقد انتهى إلى رأى في الفلسفة والشعر، أو قل إنه ابتداء برأى في الفلسفة والشعر لم يتحول عنه منذ الشباب حين كتب عن ليونارد دى فنسى في أواخر القرن الماضى إلى الشيخوخة حين تحدث عن ديكرات في السوربون سنة ١٩٣٧. وهذا الرأى يمكن اختصاره في هذه الجملة اليسيرة التي لا تؤديه إلا تأدية مقاربة، وهو أن الفلسفة والشعر إنما يصدران في حقيقة الأمر عن ملكة واحدة في أصلها، وهى هذه الملكة التي ترفع الانسان عن الحقائق التفصيلية الواقعة إلى عالم آخر أرقى منها، يفسرها ويعرضها في شيء غير قليل من الروعة يسمو بها إلى هذا الكمال الذى يطمح إليه الانسان الممتاز. فالفيلسوف شاعر يعرض شعره تراً في أكثر الأحيان، والشاعر فيلسوف يعرض فلسفته شعراً دائماً.

وقد كان بول فاليري نفسه هو الصورة الكاملة للفيلسوف الشاعر أو الشاعر الفيلسوف. ومن أجل ذلك لم يخطئ معاصروه حين سموه شاعر العقل، ولم أجد أنا حين سميت عقل الشعر في أول هذا الحديث.

قلت إنى عرفت بول فاليري من بعيد حين لجأ مجده الناس في أعقاب الحرب الماضية، وظلت معرفتى له تتقدم شيئاً فشيئاً حتى أصبح أحب المعاصرين من أدباء فرنسا إلى وآثرهم عندي، وحتى أصبح الوقت الذى أنفقه مع كتبه ودواوينه حين يسمح لي العمل بالفراغ لنفسي وإمتاعها باللذة الفنية العليا أعز الأوقات إلى وأكرمها عليّ، وحتى اتخذت لنفسي منه صورة غريبة رائعة فيها كثير جداً من التواضع وكثير جداً من الكبرياء، وفيها كثير جداً من السماحة وكثير جداً من الامتياز. وقد هممت أن أعرفه لقراء العربية فتحدثت عنه في الرسالة غير مرة، وتحدثت عنه إلى جمهور المثقفين في غير محاضرة، وترجمت في الرسالة شيئاً من كتابه عن النفس والرقص، ولكنى لم أجد لهذا كله في نفوس المثقفين الشرقيين إلا صدى ضئيلاً فآثرت نفسي به. ثم أتيسح لي أن ألقاه سنة ١٩٣٧ فإذا الصورة التي رسمتها لنفسي منه صادقة كل الصدق لولا أنه في تلك السنة لم يكن من الصحة واعتدال المزاج بحيث كان يجب، وقد كان في فصل الصيف من تلك السنة يعالج أسنانه فيما يظهر

فكان حديثه عسيراً أشد العسر، وكان الاستماع له شاقاً والفهم عنه أشد مشقة . وأذكر أني ذهبت أستمتع له حين تحدث عن ديكرات في السوربون ، وبذلت جهداً غير قليل لأظفر بمكان في المدرج الذي كان يتحدث فيه ، فظفرت بمكان واقف واستمعت لحديثه من أوله إلى آخره فلم أكد أفهم عنه شيئاً . وسألت بعض الذين استمعوا له معي من الأساتذة فإذا هم مثل لم يكادوا يفهمون عنه شيئاً ، ولكننا جميعاً كنا معجبين بهذا الصوت الهادي القوي الحار الذي كان يملأ المدرج حناناً وحباً وإيماناً . ثم قرأنا الحديث بعد ذلك فإذا هو آية من آيات البيان

على أني لقيت بول فاليري بعد ذلك لقاء منتظماً في مجلس التعاون الفكري وفيما كان هذا المجلس يعقد من مؤتمرات ، وفيما كانت هذه المؤتمرات تستنب من اجتماعات خاصة ، فإذا أرق الناس حاشية وأحلام شمائل وأعذبهم حديثاً وأشدهم سخرية ، ولكنها السخرية التي تروق وتروع ولا تؤذي ولا تسوء . ولم يكن يكره الدعاية الحلوة التي لا تخلو من مكر ودهاء . وأذكر أنه كان يرأس مؤتمراً من المؤتمرات يوم افتتاحه ، فلما أذن للخطباء جميعاً في الكلام وفرغ الخطباء من كلامهم وجاء الوقت الذي كان يجب أن يتكلم هو فيه وصفت إليه الآذان وأصغت إليه القلوب واشرأت إليه الأعناق ، قال في صوت هادي باسم:

الكلمة الآن للرئيس إدوار هريو .

ولم يكن إدوار هريو بين المتكلمين في هذا الحفل ، ولكن بول فاليري أراد أن يسر المستمعين وأن يداعب هريو ويورطه في حديث مرتجل من هذه الأحاديث التي يتقنها هريو أشد الاتقان .

وكان آخر لقاء لي بول فاليري في مدينة جنيف حين اجتمع مجلس التعاون الفكري في يوليو سنة ١٩٣٩ قبيل إعلان الحرب . وكان جو جنيف في تلك السنة قائماً كثيباً ، وكان أعضاء المجلس جميعاً مشفقين من الحرب وأهوالها ، وكان بول فاليري أشدهم إشفاقاً وأعظمهم اكتئاباً وأكثرهم تشاؤماً . فلم يجب الحضارة أحد كما أحبها بول فاليري ، ولم يكبر الحياة أحد كما كبرها بول فاليري . ولم يستيئس أحد من حماقة الإنسان وضعفه وجنونه كما استيئس بول فاليري . ومن أجل ذلك كان في تلك الاجتماعات لا يتحدث عن شيء ينتظر في المستقبل إلا تحفظ واحتاط كما تحفظ نحن ونحتاط فنقول إن شاء الله . ولكنه هو

كان يتحفظ ويحتاط فيقول إن أتيسح للحضارة أن تبقى ، أو إن كتب للحرية أن تسلم ، أو إن عصم الانسان من الجنون ، أو ما يشبه هذه العبارات .  
 وقد كتب على بول فاليري أن يرى تحقيق كل ما تنبأ به ؛ فقد تنبأ بالحرب وأهوالها ، وتنبأ بما ستلقاه أوروبا من ذل ، وتنبأ بما ستعرض له المثل العليا من ضعة وانحطاط ، وقد رأى هذا كله وذاق مرارته صابراً جلدأ شجاعاً . واحتفظ بكرامته أثناء الهزيمة ، وابتهج بالنصر مع المبتهجين وقال لأحد أصدقائه وهو يسمع الأناشيد الوطنية للأمم المنتصرة : كل شيء ممكن . ويظهر أن ما أنفق من جهد وما أخذ نفسه به من صبر وجلد وما حمل نفسه عليه من درس وإنتاج وما تعرض له من بؤس وحرمان أثناء أعوام الهول ، كل ذلك قد حطم صحته تحطياً ، فذاق حلاوة النصر واستمتع بلذة الحرية ، ولكنه لم يستطع أن يثبت للنعمة بمقدار ما ثبت للنقمة ، فانهار بعد طول المقاومة ، وفارق هذه الحياة أشد ما يكون الأحياء حاجة إليه . من أجل ذلك لم تحزن عليه فرنسا وحدها ، وإنما حزنت عليه الانسانية المتحضرة كلها . وقد كنت كلما فكرت في زيارة فرنسا بعد النصر أستحضر ساعة حلوة كنت أعلل نفسي بأني سأقضيها مستمعاً لبول فاليري ، فقد ضيعت الخطوب هذه الأمنية ، وما أكثر ما تضيع الخطوب من الأمانى !! .

خسبي أن أعلل النفس بأني إن زرت فرنسا فسأسعي إلى قبر بول فاليري في تلك المقبرة البحرية التي رأها صبياً . وغناها رجلاً ، واطمان فيها الآن إلى آخر الدهر .